مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 08 عدد: 05 السنة: 2019
ص: 446 - 460 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

فرادة اللغة البشرية عند اللّسانيين الأمريكيين
The Uniqueness of the Human Language According to American Linguists

د. الخَـشِـير داودي *
Daoudi Khatir
المركز الجامعي عبد الحفيظ بو الصوف –ميلة– (الجزائر)
University center of Mila / Algeria

تاريخ الإرسال:2019/04/12	تاريخ القبول: 2019/10/29	تاريخ النشر: 2019/12/01

ملخص البحث

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تبيان فرادة اللغة البشرية في اللسانيات الأمريكيّة، وأخصّ بالذكر عند تشارلز هوكيت صاحب نظرية خصائص التصميم للغة، وعند نعوم تشومسكي نظرية إبداعية اللغة. إنّ هذين اللسانيين يعتبرا من أشهر اللسانيين الأمريكيين الذين قدّما طروحات علميّة مؤسسة؛ إذ يرى تشارلز هوكيت؛ أنّ اللغة البشرية في صورتها المنطوقة لا المدونة تشترك مع أنظمة التواصل لدى بقية الأجناس الحيوانية في تسع سمات، من مجموع ثلاث عشرة سمة. أما تشومسكي فيرى أنّ آلية التكرار التي تتصف بها اللغة البشرية هي أعمق فارق تصميمي بينها وبين أنظمة التواصل لدى الكائنات الأخرى.

الكلمات المفتاحية: (اللغة البشرية ؛ الفرادة ؛ المقاربة ؛ خصائص التصميم ؛ آلية التكرار)

Astract :

This research paper is designed to show the uniqueness of the human language in American linguistics, and in particular Charles Hookett's theory of the design characteristics of language, and Noam Chomsky's creative theory of language. These two linguists are considered to be the most famous of the American linguists who offered founded scientific ideas Charles Hookett considers the spoken human language as an entity which shares with the rest of the animal races the communication systems in nine features, out of the total thirteen attributes, Chomsky sees the mechanism of repetition that characterizes human language as the deepest difference between them and the communication systems of other objects.

* الخَـشِـير داودي. khatir.daoudi@yahoo.com

Keywords: Human Language; The Uniqueness; The Approach; Design Features of Language; Repeat Mechanism.

تمهيد:

ما زال العقل البشري في حيرة من أمره إزاء اللغة من حيث وظيفتها وماهيتها ونشاطها داخل المخ الإنساني، إذ تعددت الرؤى ما بين كونها ظاهرة اجتماعية أو نفسية أو ظاهرة عقلية أو ظاهرة بيولوجية عصبية، ومع ذلك فقد عجزت هذه الظواهر منفردة عن احتواء إشكالية اللغة، وتقديم تفسيرات لإدراك كنه اللغة. وفي محاولة اللسانيين الغربيين للإحاطة بتلك الإشكالية اللغوية فقد تم استضافة اللغة –لتعدد جوانبها– من قبل معظم العلوم على اختلافها حتى شملت علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم المعرفة، الكيمياء والطبيعة والفيزياء والبيولوجيا.[1] ومع ذلك كانت معالجة هذه العلوم للغة مجرد مقاربات وافتراضات، وذلك أنّ اللغة بنية فطرية ذات جهاز عصبي، ولو تعمقنا أكثر في معرفتها؛ لوجدنا أنّ دراستها ربما تكون أصعب من دراسة علم الرياضيات، لسبب واحد وهو أنّها من أسرار الخلق المحجوبة المعرفة.

وإذا جئنا إلى تعريف اللغة بمفهومها الواسع فما هي إلا تجسيد مادي منطوق أو مدوّن، لما يجري في العقل! وبالتالي تعكس السمات البنيوية للغة السمات البنيوية للعقل، فاللغة هي النافذة المشرعة على العقل الذي سيحيلنا بدوره إلى معرفة الطبيعة الاستثنائية للدماغ البشري بصفته عضوا غاية في التعقيد الفيزيولوجي لا بل وبصفته واحداً من أهم الأعضاء التي ترضي غرورَ الإنسان وتضفي على وجوده البيولوجي فرادة تميزه عن جميع المخلوقات الأخرى.

لقد حاولت في هذه الورقة العلمية شرح فرادة اللغة البشرية عند اللسانيين الأمريكيين، بقراءة وصفية تحليلية، بحيث تناولت السمات التصميمية للغة عند هوكيت بشي من التفصيل، وآلية التكرار اللغوية عند تشومسكي، وما هي مرجعيته العلمية في ذلك ؟ وكذلك تناولت آليات التواصل عند الكائنات الأخرى من منظور البحث علمي الحديث، ثم خلصت إلى ذكر مجمل الآراء العلمية في فرادة اللغة البشرية، ونتائج البحث.

لقد أصر الكثير من اللغويين على فرادة اللغة البشرية، ولا يوجد لها أي أنموذج تواصلي تستعمله بقية الأجناس الأخرى، أما اللغوي الأمريكي **تشارلز هوكيت**[2] فقد وضع مجموعة من السِمات الخاصة باللغة البشرية، وأسماها:"السِمات التصميمية"[3]، بلغ عددها ثلاث عشرة سمة،

بحيث اعتقد جازما أن السِمات التسعة الأولى منها ربما تكون مشتركة، بين اللغة البشرية بصورتها المنطوقة لا المدونة وأنظمة التواصل لدى بقية الأجناس الحيوانية في حين انفردت لغة الإنسان استثنائيا بأربع سِمات هي الأخيرة في قائمة (**هوكيت**)؛ وهذه السِمات هي كالأتي:[4]

1- أن **اللغة قناة صوتية سمعية** Vocal-Auditory Channel: يتم تنفيذ الكثير من اللغة البشرية باستخدام القناة الصوتية والقناة السمعية.

2- أن **اللغة ذات بث منقول وتلقّي اتجاهي** Broadcast transmission and directional reception: يمكن سماع جميع اللغات البشرية إذا كانت ضمن نطاق القناة السمعية لشخص آخر، وكما أنّ المستمع لديه القدرة على تحديد مصدر الصوت عن طريق تحديد الاتجاه بكلتا الأذنين.

3- أن **اللغة ذات كيان سريع الزوال** Rapid Fading (transitoriness): تتبدد أشكال الموجة من لغة البشر بمرور الوقت ولا تستمر، بحيث يمكن أن يستمع السامع فقط إلى معلومات سمعية محددة في الوقت الذي تحدث فيه.

4- **التبادلية** Interchangeability: بمعنى أنّ المتكلم في الحدث اللغوي المعيّن يستطيع أن يتحوّل إلى مستمع، بمعنى أنّه يستطيع المتكلم والمستمع تبادل الأدوار فيما بينهما.

5- **التغذية الارتدادية التامة** Total Feedback: يستطيع المتحدثون سماع أنفسهم يتحدثون ويراقبون إنتاجهم للكلمات ويستوعبون ما ينتجونه من خلال اللغة.

6- **التخصصية** Specialization: أصوات اللغة البشرية متخصصة في التواصل. عندما تلمس الكلاب، عليك أن تهدئ نفسك. عندما يتحدث البشر، هو لنقل المعلومات.

7- **الدلالية** Semanticity: بمعنى أنّ اللغة لها خاصية تقديم المعنى، يمكن أن تكون متطابقة مع إشارات محددة مع معنى معين.

8- **الإعتباطية** Arbitrariness: بمعنى أنّه ليس ثمة علاقة طبيعية بين العلامة اللغوية وما تدل عليه، فكلمة منضدة مثلا لا تحمل بمكوناتها الصوتية أو الصرفية شيئا يجعلها توحي بهذا المسمى الذي تطلق عليه.

9- **التمايز** Discreteness: بمعنى أنّ اللغة لها خاصية الاختلاف المطلق بين وحداتها، فصوت الهاء في "هرب"، غير صوت "الضاد"، في ضرب، فالوحدتين "هرب وضرب"، متمايزتان صوتيا ودلاليا.

10- **الانزياح** Displacement: يمكن للأشخاص الرجوع إلى الأشياء في المكان والزمان والتواصل حول الأشياء غير الموجودة، بمعنى أنّ النظام اللغوي عند البشر يستطيع أن التواصل مع الفضاء الخارجي.

11- **الإنتاجية** Productivity: بمعنى أنّ اللغة لها خاصية الإبداعية بحيث بإمكان البشر من عدد محدود من الفونيمات والكلمات توليد وفهم عددا غير محدود من الجمل والتراكيب والعبارات.

12- **الانتقال الثقافي** Traditional Transmission: بمعنى أنّ اللغة تنتقل من جيل إلى جيل عن طريق التعليم والتعلّم وليس بالغريزة.[5]

13- **ثنائيّة التنميط** Duality of patterning: يتم الجمع بين الأجزاء الصوتية غير المعقدة (الصوتيات) لتكوين كلمات ذات معنى، والتي بدورها يتم دمجها مرة أخرى لإنشاء جمل.

يرى **هوكيت** أنّ "**الانزياح، والإنتاجية، والانتقال الثقافي، وثنائية التنميط**"، تقتصر على اللغة البشرية فحسب؛ وأنّ بقية الميزات الأخرى قد نجدها في آليات التواصل عند الكائنات الأخرى، ثم أضاف ثلاثة سِمات أخرى، ليصبح عددها إجمالاً ستة عشر، وهي:[6]

1- "**المواربة** Prevarication أو المرواغة: بمعنى أنه يمكن أن يقول المتكلم الباطل والأكاذيب، وعبارات لا معنى لها.

2- **الانعكاسية** Reflexiveness: تعني أنّنا نستطيع التكلّم باللغة عن اللغة، فنقول مثلا: الكلمة، منها: الاسم والفعل والحرف. وكلمة رجل تتكون من ثلاثة صوامت.

3- **التَعَلُمِيَة** Learnability: تعني التعلمية أنّه لدينا القدرة على التعلم: يمكن لمتكلم اللغة تعلم لغة أخرى.

كما أضاف بعض اللغويين المعاصرين ثلاثة سمات أخرى ليصبح العدد (تسعة عشر)، وهي:"**السيطرة، والتبعية البنيوية، والدَورْ**".

ويرى (هوكيت) أن اللغة تختلف عن التواصل؛ إذ تقتضي اللغة توافر جميع هذه السمات الست عشرة في بنيتها دون استثناء، في حين تفتقر جميع الأنظمة التواصلية لدى الحيوانات، وإن بدا بعضها غاية في التعقيد والتطور، إلى بعض هذه السمات وتشتمل على البعض الآخر.

أما إذا جئنا إلى موقف البحث العلمي فإنّه قد بحث في آليات التواصل عند الكائنات الأخرى، فقد أثبت أنّ النمل يعتمد نظاماً تواصلياً يقوم على إطلاق عشرين مادة كيميائية ذات رائحة مختلفة تدعى (**الفيرمونات**)، ويحمل كل منها مضموناً دلالياً محددا يتعلق بمكان الطعام، ومصادر الخطر، بل وحتى الدفاع عن المستعمرة ووضع خطط هذا الدفاع.[7]

وكما أثبت البحث العلمي أنّ آليات التواصل بين الطيور أنها صوتية-سمعية، وذات بث منقول وتلقي اتجاهي، وأنها سريعة الزوال، فضلاً عن دلاليتها، واعتباطيتها الواضحتين. وتشكل الأغاني والصرخات عنصرين أساسيين في بنية النظام التواصلي لدى الطيور؛ إذ تُستخدم الأغاني أساساً لجذب الشريك بينما تنحصر وظيفة الصرخات في إصدار نداءات الخطر، أو مكان الطعام مثلا. فالطيور توظف نوعاً ما من النحو، لتركيب أغانيها حيث تقوم **النوتات** الموسيقية مقام الفونيمات بمعنى أنّ لها صفة التمايزية للتمييز بين الأغاني. ومع ذلك لا تمتلك الطيور القدرة على خلق تشكيلات لانهائية، من تلك النوتات المحدودة العدد، فمحدودية النوتات تنعكس إجمالا على محدودية الرسائل الغنائية التي بوسع تلك الطيور إنتاجها. فبعض الطيور لا تمتلك سوى أغنية واحدة فحسب، والبعض الأخر قد يصل عدد الأغاني التي في متناوله إلى 2000 أغنية ذات دلالات متعددة ومتنوعة لكنها لا زالت محدودة العدد.[8]

وكما أثبت البحث العلمي حالة استثنائية لقرد من نوع **البونوبو** يدعى **كانزي**. ففي عام 2006 أظهر هذا القرد العجيب، في مختبر اللغة لجامعة جورج ستيت الأمريكية، قدرة هائلة على تعلم نوع من اللغات المصطنعة تدعى (**يركش/ Yerkish**)[9] وتتضمن مجموعة من الرموز الموضوعة على لوحة من الأزرار مرتبطة بحاسوب. وأظهر القرد كانزي قدرة استثنائية على تعلم تلك الرموز فضلا عن ضغطه الأزرار على التوالي لينظم جملاً كاملةً ذات محتوى دلالي واضح. وبلغ معجم المفردات التي تعلمها (كانزي) 400 رمزاً.[10]

وفي سن الثامنة سجل الباحثون في جامعة جورج ستيت قدرة واضحة لكانزي على فهم اللغة الإنكليزية المنطوقة فأخذ يقرن رموز لغة (**يركش**) بالكلمات المنطوقة ضمن مستوى يوازي

مهارات طفل بشري في سن السنتين ونصف فكان يستجيب لبعض الأوامر المنطوقة. بل وسجل الباحثون ظاهرة غاية في الغرابة لدى كانزي حينما رصدوا تنسيقاً دقيقاً لمجموعة من الأصوات الناعمة يُصدِرُها هذا القرد ويناور في درجة ارتفاعها وانخفاضها ليشير إلى أشياء مثل الموز، والعنب، مثلا. ويعد هذا دليلا لا يستهان به على بلوغ كانزي مستويات هائلة من السيطرة على جهازه النطقي مما جعل بوسعه إنتاج ما يوازي السِمات الفونولوجية المميزة للأصوات عن غيرها.[11]

فهذا السلوك اللغوي من كانزي قد يثبت لنا أن اللغة البشرية رغم فرادتها فإنّه بوسع الأجناس الأخرى فهم هذه اللغة ناهيك عن استخدامها ؟ والأمثلة كثيرة وشائعة حول تنفيذ الحيوانات لما يبدو أنه أوامر لغوية صادرة عن الإنسان ضمن سياق يبدو أنه يشتمل على تواصل حقيقي بين الطرفين، فالتجربة تثبت أن قطيع الأغنام يستجيب لنداءات راعيه استجابة تامة.

أما تشومسكي فقد سخر من جميع محاولات الباحثين الرامية إلى إثبات قدرة الأجناس الأخرى من غير الإنسان، وخاصة القردة، على اكتساب اللغة البشرية، ويرى أن هذه المحاولات العبثية التي تحاول إثبات امتلاك القردة لقدرات لغوية توازي تلك التي يمتلكها البشر، تشبه محاولات الإنسان تعليم الطيران لطيور لا تطير أصلا مثل البطاريق. فعلى الرغم من التشابه الجيني بين البطريق مثلا والنورس لا يمكن للبطريق أن يطير مهما حاولنا تعليمه ذلك، ونفس الأمر ينسحب على محاولات الإنسان لتعليم القرد مفردات السلوك اللغوي البشري بالرغم من التشابه الجيني الهائل بينهما؛ إذ يبلغ (98.5%).[12]

إنّ تشومسكي[13] يرى أن اللغة مَلَكة بشرية بامتياز ناجمة عن وجود برمجة جينية مُسبقة لجنسنا تجعل عملية اكتساب اللغة من المحيط عملية ممكنة ويسيرة، بل ويمضي إلى ما هو أبعد من ذلك حينما يتحدث عن قطعية وجود عضو متخصص باللغة في الدماغ البشري منفصل عن جميع الأعضاء الأخرى وظيفياً.

إنّ ادعاءات إنتاج السلوك اللغوي لدى الحيوانات فهو إنتاج، في أحسن أحواله، ولكنه لا يقترب إلا قليلا جداً من فيزياء الأصوات المسموعة في اللغة البشرية. ثم إنّ جهاز النطق البشري غير جهاز النطق عن الكائنات الأخرى؛ فأسنان الإنسان عمودية متساوية، وليست مائلة بانحراف كما عند القردة. والشفتان عند الإنسان أكثر مرونة عضلياً مما هي عليه لدى بقية

الأجناس. والفم عند الإنسان أصغر بكثير منه لدى بقية الحيوانات ويساعد ذلك على فتحه وغلقه بسرعة، وكما أنه يشتمل على لسان أصغر وذو نسيج عضلي أكثف مما يجعله مرناً للغاية في تشكيل الأصوات داخل التجويف الفموي. ناهيك عن موقع الحنجرة البشرية الأكثر انخفاضا في البلعوم في حين أنها أكثر ارتفاعا لدى القردة مثلا.[14]

- **فرادة اللغة البشرية عند تشومسكي في آليّة التكرار:**

لما تقدمت بيولوجيا اللغويات Biolinguistics، في تحديد السِمات التي تضع اللغة البشرية في سياق منقطع تماماً مع سِمات أنظمة التواصل الشائعة لدى بقية الأجناس، ظهر تشومسكي وروبرت بيروك في كتابهما:"لمَ نحن فحسب: اللغة والتطور"، وحددا فيه ثلاث سمات مميزة للغة البشرية، وهي:[15]

1- إن نحو اللغة البشرية يعد نحواً هرمياً لا يأبه البتة بالتسلسل الرقمي أو الخطي للمفردات المعجمية إلا في حالة الإخراج النطقي أو المدون.

2- تفسير الجملة في اللغة البشرية يتأثر إلى درجة كبيرة ببنائها الهرمي.

3- عدم وجود سقف محدد لعمق مستويات البُنية الهرمية للجملة.

أما معنى السمة الأولى فهو أنّ نحو اللغة البشرية نحو هرميّ، لا يحفل البتة بالمسافة الخطية الرقمية للمفردات المعجمية المنتظمة في تركيب الجملة، ولا يوجد محك حقيقي تنتظم بموجبه أبنية الجمل سوى المسافة الفاصلة بين مستويات البناء الهرمي لعناصر تلك الجمل، مثال ذلك في الجملة التالية:

- الرجل الذي يزدري الضعيف أحمق.

تتركب هذه الجملة البسيطة خطيّا من خمسة كلمات، فالذي يشدّ الانتباه في هذه الجملة كلمة (أحمق)، فهي نعتٌ لكلمة (الرجل) تحديداً، وليست نعتاً لكلمة (الضعيف). فرغم أن كلمة (الضعيف) أقرب رقمياً وخطيّا إلى كلمة (أحمق)، فالمسافة الخطية بينهما = (صفر) كلمة. أما المسافة الخطية بين كلمة (الرجل) وكلمة (أحمق) فهي ثلاث كلمات. كان الأولى بكلمة (أحمق)، ضمن السياق الخطي للبُنية الجملية، أن تكون نعتاً لكلمة (الضعيف) المجاورة لها تماماً لا لكلمة (الرجل) التي تفصلها عنها ثلاث كلماتٍ كاملة. وبرغم ذلك لا يمكن لكلمة (أحمق) أن تكون

نعتاً إلا لكلمة (الرجل) حصراً. والسبب في ذلك أن كلمة (الرجل) قد تكون هي الأبعد عن كلمة (أحمق) خطيا لكنها هي الأقرب إليها ضمن مستويات البناء الهرمي للجملة:

1- الرجل

2- أحمق

3- الذي

4- يزدري

5- الضعيف

فالتركيب الهرمي للجملة يشير بوضوح إلى أن المسافة الهرمية بين كلمة (الرجل) وكلمة (أحمق) = مستوى هرمي واحد إلى الأسفل. وكما أن المسافة الهرمية بين كلمة (الضعيف) وكلمة (أحمق) = مستويين هرميين إلى الأسفل. فكلمة (الرجل) أقرب إلى (أحمق) هرمياً منها خطياً، في حين أن كلمة (الضعيف) أبعد عن (أحمق) هرمياً منها خطيّاً.

أما قضية تأثير البناء الهرمي على دلالات الجملة، فيتضح من خلال قراءة هاتين الجملتين:

- قال أحمدٌ أنَّ زيدًا ضربَ نفسه.
- قال أحمدٌ أن زيدا ضربَه.

إنّ الهاء في الجملة الأولى تعود إلى (زيد)، أما في الجملة الثانية فتعود إلى (أحمد).

إن الضمير المتصل (ه) في (نفسه) لا بد لدلالته أن لا تغادر عنصر (اسم العلم) الواقع ضمن حدود الجملة التي ورد فيها هذا الضمير تحديداً على اعتبار أن الضمير المتصل (ه) في (نفسه) يصبح ضميراً انعكاسيا يقوم فيه الفاعل نفسه بتنفيذ الفعل على نفسه ومن هنا جاء (زيد) بصفته إشارة مرجعية لدلالة أل (ه).

أما دلالة الضمير (ه) في الفعل (ضربَ) فلابد لها (أي الدلالة) من مغادرة حدود الجملة المباشرة التي وردَ فيها هذا الضمير متصلاً بالفعل (ضربَ) وعائديتها إلى (اسم علم) أخر يقع خارج حدود الجملة المباشرة التي ورد فيها هذا الضمير المتصل وهذا الاسم هو (أحمد)، أو قد تعود دلالة الضمير المتصل إلى شخص أخر لا تتوافر عليه عناصر الجملة وربما يكون بوسعنا تحديده من مؤشرات معينة في سياق الجملة.

ومرةً أخرى نجد أن المعيار الحقيقي في الوصول إلى دلالة عناصر الجملة لا يأبه بالتسلسل الرقمي لتلك العناصر ضمن حدود الجملة الرئيسة ولكنه يرتكز إلى إدراك حدود البناء الهرمي الذي يحكم عناصر الجملة عموماً.

أما فيما يتعلق بالسِمة أو المبدأ الثالث وانعدام وجود سقف يُحَجِم مستويات العمق في البنية الهرمية للجملة في اللغة، فهو يعد واحداً من أكثر السِمات أصالة في خارطة الفرادة المنسوبة للغة البشرية ويُطلق على هذا المبدأ عادة (التكرار / Recursion).

ربما يكون **غاليلو غاليلي**[16] من أوائل العلماء في القرن السابع عشر الذين أدهشتهم الآلية اللغوية، المتمثلة في قدرة الإنسان على تشكيل مجموعة لا نهائية من العبارات مستخدماً مجموعة محددة من الأصوات.

أما تشومسكي فقد أعاد رصد ظاهرة التكرار في بنية اللغة البشرية، ضمن سياق رياضي معاصر، من عالم الرياضيات البريطاني **آلن تورينغ**[17] ويستخدمه في استنطاق قابلية البُنية الهرمية للغة على تكرار مستوياتها العميقة إلى ما لانهاية.

يعتقد **تشومسكي** مع **هوسير** و**فيتش**، أن الملكة اللغوية عند الإنسان لا تمتاز بأي فرادة قطعية عن أنظمة التواصل الأخرى ما خلا فرادة التكرار؛ إذ أن سِمة التكرار ترفد اللغة البشرية بالميكانزمات اللازمة لثرائها و لتوليد عدد لانهائي من العبارات المركبة من مجموعة محدده من العناصر وينجم عن ذلك الإبداعية المدهشة والكامنة في بُنية اللغة البشرية والتي لا يضاهيها في ذلك أي نظام تواصلي آخر.

ويكمن جوهر التمايز في سِمة التكرار مقرونةً بعملية الدمج في ميكانيكية بسيطة لكنها ذات نتائج مدهشة على مستوى القدرة التعبيرية والتركيبية الكامنتين في نحو اللغة البشرية: فلنفترض وجود عنصر نحوي أساسي ندعوه (س)، قد يكون مجرد كلمة أو جزء من كلمة، وأخر ندعوه (ص)، دمج العنصرين معاً يُنتِج عنصراً نحوياً جديدا ذو بُنية هرمية ندعوه المجموعة {س، ص}.[18]

وينجم عن عملية الدمج هذه مجموعة جديدة ندعوها (ع)، بمعنى ع = {س، ص} عملية الدمج هذه تجري في اللغة البشرية على اعتبار أن الأخيرة عبارة عن نظام حاسوبي يقوم بالحد الأدنى من الحوسبة (Minimal Computation) وفقاً لخوارزمية تقوم أولا بدمج

عنصري (س) و(ص) بصفتهما أصغر عنصرين نحويين في اللغة منتجةً بذلك عنصراً جديداً اسمه (ع) والذي سيُدمج بدوره مع عنصر نحوي أخر، ليكن (ح)، ناتج عن عملية دمج أخرى وهكذا دواليك إلى ما لانهاية.[19]

- ع = {س، ص}.
- ح = {م، ر}.
- هـ = {ع، ح}...الخ.

والأمر المحيّر أن مجمل التراكيب النحوية في اللغة البشرية تبدو وكأنها ناجمة عن تكرار لبعض الأبنية الهرمية مما ينتج عنه تراكيب متداخلة مع بعضها البعض. لا يمكن لهذه التراكيب المعقدة أن تكون متيسرة إلا في ظل تطبيق تكراري للعلاقات الهرمية بين العناصر اللغوية سواء على نطاق العبارات أو الجمل. ويجعل هذا التكرار من الإبداعية علامةً فارقةً للغة ومتأصلة في بنيتها القادرة على استنساخ هياكلها النحوية الى ما لانهاية. فمثلا، أحدى العمليات التكرارية ناجمة عن حشر عدة سلاسل متداخلة في بنية جُمَلِية لا نهاية لها وذلك بمجرد الإستخدام المتكرر لأفعال مثل قال أو فكر أو أعتقد مشفوعةً ببعض جمل الوصل:

- أحمد قال أن زيد أعتقد أن هذا هو الكتاب الذي أثار حنق اللغوي الذي أدهشَ عالم النفس حينما قال أن التكرار إحدى أهم السِمات المحَدِدة للغة البشرية.

أو حشر مركبات أخرى متنوعة من أسماء وحروف جر:

- اعتقدت ليلى أن أحمد قال أن زيد أعتقد أن هذا هو الفصل الرابع في الكتاب الذي أثار حنق اللغوي الذي أدهشَ عالم النفس حينما قال أن التكرار إحدى أهم السِمات المحَدِدة للغة البشرية. وهكذا دواليك.

إنّ كل ما يتطلبه الأمر مجرد إضافة بسيطة ومتكررة إلى مقدمتها. وهذا بالتحديد ما أشارَ إليه تشومسكي حينما أكد على الفرادة القطعية للغة البشرية لكونها النظام التواصلي الوحيد من بين جميع أنظمة التواصل الأخرى لبقية الأجناس بوسعها توظيف أدوات محدودة لإنتاج مركبات لا محدودة ولانهائية لعناصرها الأساسية.

إن الأمر أشبه ما يكون بالجدول الدوري للعناصر الكيميائية في الطبيعة؛ إذ يحتوي هذا الجدول على 172 عنصرا كيميائيا وبأوزان ذرية دقيقة تختلف لكل عنصر من هذه العناصر

المجدولة بحذر. جميع الأجسام الحيوانية والنباتية والصخرية في عالمنا تتركب من تشكيلات مختلفة لهذه العناصر. لكن هذا الجدول يختزن إمكانيات أخرى غير مُفَعَّلة حتى الآن وما أن تُكتَشف مركبات أو أجسام أخرى في الطبيعة حتى تجد أنها مجرد تشكيل كيميائي أخر لبعض عناصر الجدول المذكور.[20]

- **مجمل الآراء العلمية في فرادة اللغة البشرية:**

يرى الفريق الأول أنّ لغتنا تتشابه مع أنظمة التواصل لبقية الفقريات إلا أنّ هذه الأخيرة تعد أقل تطوراً من الأولى أو أنها تعد نسخاً معدّلة عن اللغة البشرية. فاللغة البشرية تتركب من الأجزاء الوظيفية ذاتها (نوعاً) والتي تشكل البنية التحتية ودعامة التواصل بين بقية الأجناس. وعليه يكمن مفتاح معرفتنا لأصل اللغة البشرية في تتبع ميكانزمات التواصل لدى الأجناس القريبة من الإنسان. وأفضت هذه المقاربة مؤخراً إلى تبني إجابة فكرة الأصل اللغوي تكمن في التأكيد على الأصل الإيمائي بدلا عن الأصل الصوتي.

أما الفريق الثاني[21] فيؤكد على وجود قطيعة نوعية لا كمية بين الحلقات التطورية للغة وتلك الخاصة بالتواصل الحيواني. فاللغة قفزة نوعية وفريدة من نوعها لا تنسجم مع السياق الطيفي والمتدرج لنظرية التطور البيولوجي. ويأتي عالم اللغويات تشومسكي وعالم البيولوجيا ستيفن جي غولد[22] في مقدمة الباحثين المتعاطين مع أطروحات هذا الفريق. ويرون أنّ هناك انقطاع نوعي لا كمي بين اللغة البشرية وأنظمة التواصل الحيواني يتجلى في شكلين صارمين:

- الأول لغوي تصميمي متمثل في السِمة التكرارية التي تقع في قلب التمايز التصميمي للغة البشرية.
- والآخر بيولوجي جيني الانقطاع البيولوجي النوعي جينياً فيؤكده وجود الجين اللغوي FOXP2 وهو جين يقع في الكروموسوم السابع من الـ DNA أكتشفه عام 2001 مجموعة من العلماء في جامعة أكسفورد أثناء تفحص حالة خاصة من الاضطراب اللغوي أصابت عائلة بريطانية لثلاثة أجيال.

أما الفريق الثالث يتربع عليه اللغوي والنفساني الأمريكي **ستيفن بنكر**[23] الذي يختط درباً وسطاً بين الفريقين السابقين. ففي كتابه "الغريزة اللغوية" تبنى فيه رؤية تشومسكي حول وجود أساس جيني ومتأصل للنحو وحول غرائزية اللغة لدى الإنسان سواء في اكتسابها أو استعمالها على حدٍ سواء، فالدخل اللغوي المكتسب لا يكفي لتعليم الطفل نظام اللغة.

ويرى كذلك أنّ اللغة بصفتها مَلَكة لا بد لها من أن تكون قد تطورت نتيجة للانتقاء الطبيعي بصفتها تكيفاً فريدا ومدهشا غايته التواصل. فهو يعتقد أنّ اللغة غريزة بقدر غرائزية أنماط معينة من السلوك لدى بقية الأصناف من الحيوانات، كما هي عليه الحال في غريزة نسج الشباك لدى العناكب، أو غريزة بناء السدود لدى القنادس.

وكما أنّ هناك دراسات علمية حديثة أخرى؛ ترى أن الفرق الأساسي بين لغة الإنسان ولغة الحيوان يكمن في أنّ الأولى تستعمل العلامة، بينما تستعمل الثانية الإشارة، والفرق بين العلامة والإشارة هو أن الإشارة تولد رد الفعل بينما تولد العلامة التفكير. فالإشارة هي شيء يحيل على شيء آخر غير ما يشير إليه أو يطلبه، إن الإشارة منبه. ومعنى ذلك أنها شيء محسوس يولد رد الفعل ولا يبعث على التفكير. فالضوء الأحمر مثلا إشارة تدعو السائق للوقوف، ولا تحثه بالضرورة على التفكير فيما تشير إليه. إنّ الإشارة في لغة الحيوان وسيلة لإحداث رد الفعل، ويتوقف التواصل عند حدوثه. وأما العلامة الرمز فهي وسيلة للتفكير تتجاوز وظيفتها إحداث رد الفعل المباشر لأنها توحي بالأفكار المجردة التي لم تتحقق بعد في الواقع.[24]

وهناك من الباحثين من يرى أنّ كل الكائنات الحيّة تتواصل فيما بينها بلغات وكل فصيلة لها لغتها الخاصة بها، وكل ما في الأمر أن لغتها تفقد ما أسماه أندري مارتيني التمفصل المزدوج الذي هو ظاهرة صوتية ودلالية بشرية، فلغة النمل أو النحل مثلا لا تقبل التحليل إلى أصغر وحدة دالة (مونيمة) ولا إلى وحدات صوتية تمايزية غير دالة (فونيمة)، فلغة الحيوان أو الطير لا تقبل القسمة على اثنين، وهي تواصل لغوي خارج طاقة البحث اللساني لتحديده، وتنوع اللغات الحيوانية والأشياء التي لا نفقهها، تنوّع لا يختلف عن تنوع لغات الإنسان، لكن لكل حدوده ومجالاته.[25]

- **أهم نتائج البحث:**

- يرى اللساني الأمريكي تشالز هوكيت أنّ من خصائص التصميمية للغة خاصيّة المواربة Prevarication. ومعنى ذلك أنّ اللغة ليست دائما بنية شفافة في التعبير عن الحقائق، فقد تستخدم كوسيلة تمويه، فمهرب المخدرات مثلا قد لا يستعمل اسم مهرباته بطريقة مباشرة، فيستبدل اسمها باسم الحناء.
- تتمثل فرادة اللغة البشرية عند تشالز هوكيت في أربع سمات، وهي: الانزياح، والإنتاجية، والانتقال الثقافي، وثنائية التنميط.
- تبقى آلية التكرار التي نظّر لها تشومسكي هي التي تمثّل أعمق فرادة للغة البشرية، لأنّنا بهذه الآلية ننتج تشكيلات لغوية لا نهائية.
- يعد اكتشاف هذه القابلية التكرارية الكامنة في جسد اللغة البشرية منجزاً حصرياً لنعوم تشومسكي رغم أنه شخصيا يُصرِح مراراً، أنّ أول من ألتفت إلى البعد الإبداعي في مخرجات اللغة البشرية هو ديكارت.
- يعتبر تشومسكي هو أول من أنغمس في دراسة جادة لهذا البعد مستثمراً مفاهيم رياضية صارمة تعود للرياضي البريطاني آلن تورينغ.
- إنّ اللغة الحيوانية لغة إشارية تمثل ردة فعل آنية فقط، جامدة عاجزة عن اكتساب معاني جديدة، أما اللغة الإنسانية فعلاماتها متحرّكة، قادرة على اكتساب معاني.

هوامش:

[1] البنك الشجري النحوي بناؤه وتوظيفه في إطار تقنيات الذكاء الإصطناعي: أحمد روبي محمد، دار وجوه للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 2017، ص:10.

[2] تشارلز فرانسيس هوكيت (1916- 2000) عالم لغوي أمريكي طور العديد من الأفكار المؤثرة في اللغويات الأمريكية البنيوية، وهو يمثل مرحلة ما بعد بلومفيلد من البنيوية التي يشار إليها في كثير من الأحيان باسم "التوزيعية" أو "البنيوية التصنيفية"، امتدت مهنته الأكاديمية لأكثر من نصف قرن في جامعتي كورنيل ورايس.

[3] لا يوجد كتاب مترجم لتشالز هوكيت حول الخصائص التصميمية للغة، ويعتبر، كتاب: Origins of human communication: Tomasello Michael ،(2008) Cambridge، Mass ،

MIT Press أحسن كتاب فصّل في فرادة اللغة البشرية عند هوكيت وهو كتاب باللغة الإنجليزية غير مترجم للعربية.

[4] انظر الرابط التالي:https://en.wikipedia.org، Charles_F._Hockett ، تاريخ الإقتباس: 2018/10/28.

[5] انفتاح النسق اللساني –دراسة في التداخل الإختصاصي-:د، محي الدين محسّب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص:22.

[6] انظر الرابط التالي:https://en.wikipedia.org، Charles_F._Hockett ، تاريخ الإقتباس: 2018/10/28.

[7] انظر الرابط التالي:http://www.m.ahewar.org ، أصل اللغة: خالد شاكر حسين، تاريخ الإقتباس: 2018/10/28.

[8] انظر الرابط نفسه، تاريخ الإقتباس: 2018/10/28.

[9] هي لغة اصطناعية تم تطويرها للاستخدام من قبل الرئيسيات غير البشرية، توظف لوحة المفاتيح التي تحتوي مفاتيحها على الرموز ، والرموز المقابلة للأشياء أو الأفكار. يمثل الاسم المستعار كلمة لكن لا يشير بالضرورة إلى الكائن الذي يشير إليه .تم استخدام Lexigrams بشكل ملحوظ من قبل مركز أبحاث اللغات بجامعة ولاية جورجيا للتواصل مع البونوبو والشمبانزي. تمكّن الباحثون والرئيسيات من التواصل باستخدام لوحات lexigramمصنوعة في ما يصل إلى ثلاث لوحات بما مجموعه 384 مفتاحًا. انظر الرابط التالي: https://translate.google.com، Yerkish، تاريخ الإقتباس:2018/11/21.

[10] انظر الرابط التالي:http://www.m.ahewar.org ، أصل اللغة: خالد شاكر حسين، تاريخ الإقتباس: 2018/10/28.

[11] انظر الرابط نفسه، تاريخ الإقتباس: 2018/10/28.

[12] انظر الرابط نفسه، تاريخ الإقتباس: 2018/10/28.

[13] للتفصيل أكثر، انظر: آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل: لنعوم تشومسكي، ترجمة: عدنان حسن، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ط1، 2009، ص:18، وما بعدها.

[14] انظر الرابط التالي:http://www.m.ahewar.org ، أصل اللغة: خالد شاكر حسين، تاريخ الإقتباس: 2018/10/28.

[15] انظر الرابط نفسه، تاريخ الإقتباس: 2018/10/28.

[16] غاليليو غاليلي Galileo Galilei (1564-1642) عالم فلكي وفيلسوف وفيزيائي إيطالي.

[17] آلن ماثيسون تورينغ (1912- 1954) عالم الرياضيات ومؤسس علم الحاسوب الحدي، اشتهر بأبحاثه العلمية المهمة، ولاسيما ورقته العلمية التي عبر فيها عن عدم إمكانية وجود أي طريقة خوارزمية شاملة لتحديد القيمة الصحيحة في الرياضيات، وشرح أن الرياضيات سوف تحتوي دائمًا على مسائل غير مقررة.

[18] انظر الرابط التالي:http://www.m.ahewar.org ، أصل اللغة: خالد شاكر حسين، تاريخ الاقتباس: 2018/10/28.

[19] انظر الرابط نفسه، تاريخ الإقتباس: 2018/10/28.

[20] انظر الرابط نفسه، تاريخ الإقتباس: 2018/10/28.

[21] انظر: دافيد باس: علم النفس التطوري –العلم الجديد للعقل–، ترجمة: مصطفى حجازي، المركز الثقافي العربي، أبو ظبي، ط1، 2009، ص:50.

[22] ستيفن جاي غولد (1941-2002) عالم الحفريات أميركي، قضى غولد معظم حياته بالتدريس في جامعة هارفارد، ودرس غولد البيولوجيا والتطور في جامعة نيويورك، وكانت مساهمة غولد أهم لعلم الأحياء التطوري نظرية التوازن المشكل، التي وضعت مع نيلز إلدريدج في عام 1972.

[23] انظر: ستيفن بنكر: الغريزة اللغوية–كيف يبدع العقل اللغة–، ترجمة:د، حمزة المزيني، دار المريح، م، ع، السعودية، 2000، ص:107.

[24] انظر الرابط التالي:http://sophia.over-blog.com ، لغة الإنسان ولغة الحيوان، تاريخ الاقتباس:2017/17/01

[25] انظر: عبد الجليل مرتاض: علم اللسان الحديث في القرآن، دار هومة، ط1، 2013، ص:25، 26.